الأهرام

المصدر : الحياه

التاريخ : ٣٠ اكتوبر ٢٠٠١

عبدالله أنس رفيق "أسد بانشير" يروي لـ"الحياة" فصولاً من تجربته الأفغانية "الحلقة الأولى"

سألت الشيخ عزام من الرجل فأجاب إنه أسامة بن لادن . .

لكنه لا يذهب إلى أفغانستان

كان المجاهدون يأتون إلى باكستان للتدريب والتسلح ويعودون كالنمل لمقاتلة السوفيات

□ يروي عبدالله أنس، أحد أوائل العرب الذين التحقوا بـ«الجهاد الأفغاني»، تجربته في أفغانستان في حلقات تنشرها «الحياة» بدءاً من اليوم. يتحدث فيها عن قصة التحاقه بالجهاد في بداية الثمانينات، وتعرّفه إلى الشيخ الفلسطيني عبدالله عزام، الأب الروحي للعرب الأفغان والذي تزوج من ابنته لاحقاً، ثم انتقاله الى داخل أفغانستان والتحاقه بأحمد شاه مسعود، «أسد بانشير» وتحوله على مدى سنوات «اليد اليمنى» له.

■ أعلن الجهاد في افغانستان إثر دخول القوات الروسية هذا البلد عام ١٩٧٩. لكن المعركة الأولى لم تبدأ في ذلك العام. إذ ان الجهاد الأفغاني مرّ بمرحلتين: الأولى مرحلة قيام «الحركة الإسلامية» في جامعة كابول بزعامة برهان الدين رباني والبروفسور عبد الرسول سياف وغلب الدين حكمتيار والمهندس حبيب الرحمن والمهندس احمد شاه مسعود. ثار هؤلاء على نظام داود، ولكن لم يُكتب لهم النجاح. اتفقوا بعد فشل حركتهم مع ذو الفقار علي بوتو، الزعيم الباكستاني، على ان يقوّيهم ويساعدهم في الرجوع الى داخل بلادهم لمقاومة نظام داود الذي كان وصل الى السلطة بإنقلاب عسكري على الملك ظاهر شاه عام ١٩٧٣. وهكذا التقت مصلحتان: مصلحة الأفغان المسلمين الذين يريدون مقاومة النظام الشيوعي، ومصلحة بوتو الذي أراد ان يحارب النظام في كابول من خلال هؤلاء لمصالح حدودية. إذ كان يريد ان يُحقق مصالح البشتون في المنطقة التي يسكنونها والمعروفة باسم بشتوشستان.

لكن الأمة لم تكن مشاركة في الجهاد الأفغاني في تلك الفترة لانه كان لا زال جهاد نخبة تمثلت في «الحركة الإسلامية» ضد داود والشيوعيين الذين استولوا على السلطة آنذاك. لكن داود استطاع تقريباً القضاء على الحركة، وانتهى الأمر بقادتها، مثل حكمتيار ورباني ومسعود، لاجئين في بيشاور، قرب الحدود الباكستانية - الافغانية.

ظل الأمر على هذه الحال حتى وقوع الإنقلاب على داود ومقتله. عندها دخل الروس افغانستان بدباباتهم في ١٩٧٩، فكانت الشرارة التي فجّرت الشعب الأفغاني ثورةً على «الروس الملاحدة» الذين احتلوا بلاده. وكان يُقال في ذلك الوقت ان موسكو تريد ان تضم افغانستان الى الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى المنضوية تحت لواء الاتحاد السوفياتي. في حين ذهبت تحليلات أخرى إلى ان السوفيات يريدون الوصول الى «المياه الدافئة»، اي الخليج حيث منابع النفط.

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

حرك دخول الروس الرأي العام الأفغاني، من العلماء الى المواطنين العاديين. فهب الشعب كله هبة رجل واحد لإسقاط الحكومة الشيوعية بقيادة تاراقي في كابول. ووجد ذلك صدى لدى الرأي العام الباكستاني، وامتد الى صفوف الامة الإسلامية قاطبة. كما وجد، لأسباب أخرى، قبولاً لدى الأميركيين والغرب عموماً. وهكذا، عندما تورط الاتحاد السوفياتي في المستنقع الأفغاني شاركت جهات عدة في مقاومته، ولكن كل واحدة منها كانت تقاومه لهدف معيّن خاص بها.

في تلك الاجواء، عندما كانت القضية الافغانية تحظى بدعم واسع في صفوف الأمة الإسلامية، كان هذا العبد الضعيف (عبد الله انس) المولود سنة ١٩٥٨ يعيش في زاوية من زوايا الجزائر. كان إمام احد المساجد في بعلباس، غرب البلاد. تحمس إلى فكرة الجهاد. راى ان قضية افغانستان هي قضية شعب يُدمّر، ودولة إسلامية تكاد تُلحق بالجمهوريات الاخرى في اسيا الوسطى التابعة للاتحاد السوفياتي الشيوعي. هذه كانت الدوافع الكبرى التي حركت عندي الرغبة في دعم الجهاد الافغاني.

لكن هناك سبباً آخر مباشراً ساهم في دفعي الى المشاركة فعلياً عام ١٩٨٣. إذ انني دخلت في يوم من أيام ذلك العام مكتبة عامة في مدينة بلعباس ووجدت عدداً من أعداد مجلة «المجتمع». ووجدت لدى تصفّحي صفحاتها الداخلية فتوى للدكتور الفلسطيني عبدالله عزام تنص على ان الجهاد في افغانستان «فرض عين» على الأمة الإسلامية. لم يكتف بالفتوى من عنده، بل حولها الى علماء آخرين لتاييدها، مما يجعل لها صدى اوسع في الامة. وصادقت عليها فعلاً مجموعة من العلماء اذكر منهم الشيخ بن باز والشيخ بن عثيمين والشيخ القرضاوي وعبدالله ناصح علوان والشيخ حسن أيوب.

بعد قراءتي تلك الفتوى قررت ان استجيب لها، وكان ذلك اواخر ١٩٨٣. كنت قررت سابقاً اداء العمرة مطلع ١٩٨٤. فعقدت العزم على ان اذهب الى المملكة العربية السعودية وانتقل من هناك الى افغانستان.

اللقاء الأول مع الشيخ عزام

التقيت قدراً في مكة المكرمة الشيخ عزام. رأيت رجلاً كما قال عنه أحد الشعراء في الخليج بعد استشهاده رحمه الله:

«طلعة يوسفية، وعزم عُمري، وحُسام خالدي».

كان فعلاً يتميّز بجمال رزقه الله إياه، وصاحب عزيمة لا تلين. كما انه كان حاسماً بتبنيه الجهاد وتحريكه الأمة في سبيل ذلك.

رأيت الرجل من بعيد. إقتربت منه، وكان يتضلع من ماء زمزم في مكة. قلت له: هل انت الشيخ عبدالله عزّام؟ كنت رايته في صورة من قبل، ولكن لم يتاكد لي انه هو. فرد: نعم، انا عبدالله عزام. وكان معه ابناؤه الثلاثة، محمد وحذيفة وابراهيم، وكان عمر ابنته التي صارت زوجتي في ١٩٩٠، نحو خمس سنوات. لكنني لم اكن اعرف ان القدر سيجمعنا لاحقاً، بعد اكثر من عشر سنوات.

قلت له: قرات في مجلة «المجتمع» الفتوى التي عرضتها على العلماء ووافقوا عليها وفحواها ان الجهاد في افغانستان «فرض عين». اجابني: نعم، نحن افتينا بذلك. فقلت له: إذا اراد شخص ان يذهب الى افغانستان، فما الذي عليه ان يفعل؟ أجاب: الأمر بسيط جداً. إنني موجود هنا الآن لفترة قصيرة وساعود الى إسلام اباد بعد اسبوع. هذا رقم هاتفي في العاصمة الباكستانية. اتصل بي إذا جئت الى باكستان وساربطك بقادة الجهاد في افغانستان.

لم يكن الشيخ عزام يومها انتقل نهائياً الى بيشاور للمشاركة في الجهاد. إذ كان لا يزال استاذاً جامعياً في إسلام أباد. وكان يُقسّم وقته ثلاثة ايام يجمع فيها كل محاضراته في جامعة إسلام اباد، وينتقل الى بيشاور لثلاثة ايام اخرى يمضيها بين قادة الجهاد ويتعرف عن كثب إلى عُمق القضية الافغانية.

قال لي: هل تحتاج الى شراء تذكرة للنزول الى إسلام آباد. قلت له: الحمد لله، عملتُ هنا مرشداً الحجاج واعطوني راتباً يكفي لشراء تذكرة وتجهيز نفسي. فقال: إذن، هذا رقم هاتفي، وإنني في انتظارك، إن شاء الله، عندما تصل الى إسلام آباد.

الرحلة الى باكستان

بعد ١٥ يوماً اشتريت تذكرة للسفر على متن الخطوط الجوية الكويتية. سافرت من السعودية الى كراتشي. وأذكر انني صُدمت بما شاهدت. فما ان نزلت الى المدينة حتى رأيت أموراً عجيبة لم اكن اتوقعها. كنت امشي في الشارع ويمشي معك كل ما خلق الله. ترى واحداً ينام في الشارع. ترى «المرسيدس» بموديلها الأخير تعبر الشارع والى جانبها بغل! ترى رجلاً يتسول في الطريق والى جانبه آخر يرتدي بذلة وثالثاً يفترش الرصيف محولاً إياه مكاناً لتناول الطعام! كان مشهداً لم اره في حياتي. ومهما قيل في الجزائر، فإن الأمر فيها لم يكن أبداً على هذه الدرجة من السوء.

تعجّبت للامر، وشعرت يومها بغربة شديدة. كل شيء جديد عليَ. لا اعرف اللغة الأوردية ولا الانكليزية، إذ ان الثقافة في الجزائر فرنسية. وبقيت في كراتشي أقل من يوم. وتمكنت من شراء تذكرة عبر طائرة أخرى الى إسلام أباد. عندما هبطت فيها كان الوقت مساء. اتصلت بالشيخ عزام، رحمه الله، على الرقم الذي اعطاني إياه. قلت له: هل تذكر «أنس الجزائري» الذي قابلك قبل اسبوع في زمزم، واعطيته رقمك؟ اريد ان التحق بالجهاد في افغانستان.

رد عليَ: هل تعشيت؟ قلت له: لا. فقال: سانتظرك على العشاء.

ركبت سيارة أجرة من المطار الى بيته في حي الاستاذة في إسلام اباد، وهو حي راق. استغرقت الطريق قرابة ٢٠ دقيقة. عندما دخلت عليه، وجدت مجموعة من الشباب. إذ كان بيته يعج الزوار، سواء من طلابه او من الشباب الذين يريدون ان يستفتونه في العلم.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

قال لي بعد العشاء: لا اعتقد بانك إذا نزلت لوحدك الى بيشاور ستستطيع التعرّف إلى مكاتب المجاهدين، سواء حكمتيار او رباني او سياف. إنني سانزل اليها بعد يومين وساخذك معي.

اللقاء مع أسامة بن لادن

في اليوم الذي سبق نزولنا الى بيشاور، شاركت في غداء عند الشيخ. كان يتغدّى معنا رجل لم أكن قد رايته في اليومين الماضيين اللذين امضيتهما عند الشيخ. كانت تلك المرة الأولى التي اراه فيها. ولا اعرف هل كان وصل لتوه الى إسلام آباد، أم كان فيها. لكنني لم الحظه سوى على الغداء. عرّفني الشيخ عزام وقتها بضيفه قائلاً: هذا «أبو عبد الله» أسامة بن لادن، وهو من الشباب الذين يحبون نصرة الشعب الافغاني.

تعرّف أحدنا إلى الآخر في تلك الجلسة، لكنه كان تعارفاً سطحياً. ولم أره في تلك الفترة سوى على الغداء، إذ انه لم ينزل معنا الى بيشاور. سألت الشيخ عزام عنه، فقال لي انه لا ينزل الى افغانستان، إذ يأتي من جدة ويمضي هنا يوماً او يومين ثم يعود الى المملكة العربية السعودية. ولم احاول ان أسأله لماذا، لأن الأمر لم يكن يعنيني ولم تكن له أهمية كبرى.

سافرنا الى بيشاور في اليوم التالي. نزلنا في طائرة صغيرة أنا والشيخ عزام، وزوج ابنته الكبرى، ومهندس معماري كان يريد ان يعرض خدماته على المجاهدين. وصلنا ليلاً، واستقبلنا مكتب الشيخ سياف الذي كان في ذلك الوقت أمير «الاتحاد الإسلامي لمجاهدي افغانستان» بعدما فوّضت إليه فصائل المجاهدين تمثيلها. عرّفنا الشيخ عبدالله إلى الشيخ سياف الذي قال: ستذهبون الآن معنا. في القضية الأفغانية حتى الآن ١٢ عربياً وأنتم ثلاثة فاصبحتم ١٥.

نعم، كان هذا عدد كل متطوعي الأمة الإسلامية في الجهاد الأفغاني في تلك الفترة.

انتقلنا في البداية الى قرية بابي وكان فيها، الى جانب الأفغان، ١٢ عربياً أذكر بينهم «ابو الجود العراقي» وشقيقه. قدّمني الشيخ عبدالله اليهم، كما قدم عربيين آخرين. وكانت بابي خاضعة للشيخ سياف وفيها مخيم اسمه «مخيم البدر». وبانضمامنا نحن الثلاثة الى هذا المخيم، صار عدد العرب فيه ١٥. وكنا جميعاً «ضيوفاً»، إذ ان المخيم هو للأفغان.

وكان الشيخ هو من أعطاني في تلك الفترة إسم «عبدالله أنس». كنت أُطلق على نفسي من ايام الجزائر إسم أنس إعجاباً به، على رغم ان إسمي هو بوجمعة. ولكن في بيشاور، صار الشيخ يُقدّمني إلى المجاهدين قائلاً هذا «أنس. هذا عبدالله أنس». قال لي: عبدالله انس؟ فقلت له: لا باس. عبدالله أنس.

في اليوم الثاني، كان الشيخ عبدالله (عزام) يبيت عند الشيخ سياف. وكنا نحن في المخيم على وشك البدء بصلاة العشاء. قدّمني المجاهدون، فصلّيت فيهم صلاة العشاء. وكان مكبّر الصوت يغطي القرية بأسرها. بعد نصف ساعة من انتهاء الصلاة، فاجانا الشيخ عبدالله والشيخ سياف بدخولهما المعسكر. قال الشيخ عبدالله: من صلّى بكم العشاء؟ فرد أحد الشباب: الجزائري هذا. فتوجه الى الشيخ سياف: ألم أقل لك إن هذه التلاوة ليست تلاوة أفغانية. فردّ سياف مازحاً: أوتظن أن الأفغان جُهال لا يقرأون القرآن وأنتم العرب فقط من يستطيع قراءته؟ ثم أضاف: استمر في الصلاة في الشباب.

وهكذا بدأت أصلّي بهم. لكنني كنت أعرف انني لم آت لأجلس في بيشاور. كنت أريد مشاركة فعلية في الجهاد، وان اتعرف إلى أفغانستان وما يدور فيها، وما الذي يمكن ان نقدّمه. طبعاً، كان للسن دوره، إذ لم أكن تجاوزت ٢٤ عاماً وكنت ممتلئاً حماسة.

تدربنا في معسكر بابي على السلاح بطريقة تؤهل واحدنا للقيام بعمل عسكري داخل أفغانستان. كانوا يعطون المجاهد رشاش كلاشنيكوف ويدربونه على طريقة استخدامه في حال تعرّضت قافلة المجاهدين لكمين روسي. لكنه لم يكن تدريباً عسكرياً محترفاً كالذي يُعطى في الكليات الحربية. كانوا يُعلموننا المبادئ الأساسية لئلا نقع في الأسر. لكن هذه الأمور كنت أعرفها أصلاً لأنني اديت «الخدمة الوطنية» في الجيش الجزائري.

بعد شهرين من وجودنا في

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

قرية بابي، زارنا الشيخ عبدالله وقال: يا شباب، نريد الآن أن نوزّعكم في داخل أفغانستان. نريدكم على شكل جماعة التبليغ. لكن خروجكم سيختلف عن خروج هذه الجماعة. نريدكم ان تخرجوا الى داخل الولايات الأفغانية لكي نعرف حقيقة ما يدور فيها. إذ كانت الصورة آنذاك تلك التي ينقلها الإعلام الغربي. وهذا بالفعل ما تحققت منه بنفسي. إذ كنت العربي الأول الذي يصل الى مزار الشريف في شمال أفغانستان، لكنني عندما وصلت وجدت مجموعة من الفرنسيين سبقتني الى هناك بأربع سنوات. كم هم متقدمون على الأمة الإسلامية، حتى في قضاياها!

وأوضح الشيخ عزام للشباب أن من يريد الدخول الى أفغانستان «فهذه فرصته»، إذ ان هناك قوافل للمجاهدين تتاهب للتحرك الى الداخل، ويمكن ترتيب دخول من يرغب من العرب ضمن هذه القوافل. وأضاف: من يريد منكم ان يخرج لشهر أو لستة شهور فله ذلك. انتم من يختار المناطق التي تريدون الذهاب اليها. أمامكم المناطق الحدودية، أو المناطق الغربية، أو الشرقية، أو الشمالية. فكنت أنا من الذين رفعوا أيديهم، وقلت إنني اريد المناطق الشمالية البعيدة على حدود الاتحاد السوفياتي. فقال لي الشيخ عبدالله، وكان معه أحد العلماء الأفغان ويدعى مولوي عبد العزيز، وهو من مزار الشريف، إن قافلة ستتحرك الى شمال أفغانستان، وتحديداً مزار الشريف، بعد عشرة أيام. وطلب مني أن أُجهّز نفسي للالتحاق بها.

كانت قوافل المجاهدين تأتي من داخل أفغانستان. يأتي المجاهدون بالمئات، وأحياناً بالآلاف، من دون سلاح. ثم تتولى الحكومة الباكستانية الإشراف على تسليحهم وتدريبهم. وكان المجاهدون يتوزعون على سبعة أحزاب أكبرها إثنان: الحزب الإسلامي بزعامة غلب الدين حكمتيار والجمعية الإسلامية بزعامة برهان الدين رباني. وكان هذان الحزبان القوة الضاغطة الأساسية داخل افغانستان.

بعد أن ينتهي تدريب المجاهدين وتسليحهم داخل باكستان تبدأ الرحلة الى الداخل. كانت كل قافلة تضم ٢٠٠ - ٣٠٠ مقاتل. كانوا يعودون «مثل النمل»: هذه قافلة جيلاني، وهذه قافلة محمد نبي، وتلك قافلة حكمتيار، وهذه قافلة سياف. وكانت هذه القوافل تسير طبعاً في ظل قصف عنيف يمارسه الروس الذين يحاولون قطع الطرق على المجاهدين. لكن لم يكن ذلك ممكناً، فالشعب كله هب للجهاد.

كانت القافلة المتوجهة الى مزار الشريف تابعة للجمعية الإسلامية بزعامة برهان الدين رباني. ومن بين أفرادها كنا نحن العرب فيها ثلاثة فقط: السوري أبو أُسيد، والكويتي ضياء الرحمن، وأنا.

توجه الشيخ عبدالله إلينا قبل انطلاقنا في القافلة وقال: تعلمون أن الأفغان يُقاتلون عدوهم الآن في شكل أحزاب، وليس تحت راية حزب واحد أو جيش واحد وقيادة واحدة. هم أحزاب، ولا نُحب ان تتأثروا بحزب على حساب الآخر.

تم أعطاني رسالة وأمرني على المجموعة وقال لي: ما أن تصل الى مزار الشريف، في اليوم الثالث او الرابع، بحسب ما تيسر لك ظروفك، لا بد من أن تزور «أمير» الحزب الإسلامي في المنطقة. فالولاية لا تكون خاضعة فقط لحزب واحد وإنما لكل الأحزاب. هناك شخص إسمه مولوي عبدالسلام. يجب ان تذهب لزيارته لئلا يظن أن العرب يقفون مع حزب ويهملون حزباً آخر. نحن ضيوف على الشعب الأفغاني كله. فإذا بتنا ليلتين عند الحزب الإسلامي يجب أن نبيت ليلتين عند الجمعية لئلا نُحسب على طرف.

حفظنا هذه التوجيهات وذهبنا. وضعونا في قافلة وكان الشتاء على الأبواب.

□ اعداد كميل الطويل

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية